أحلام مستغانمي وفوضى الحواس

أ: بن عيسى سميرة إشراف، أ.د عقاق قادة.
كلية الأداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

أحلام في سطور وأعمالها الأدبية:

من فضل الله على الجزائر أن قيضت لها ابنتها البارة (أحلام مستغانمي) التي دعت إلى إحياء بلدها من خلال أعمالها الرواية التي تستجيب لها قطراتها، بان هذه الأديبة تمثل قامة إبداعية كبيرة، ليس في الجزائر فحسب، وإنما العالم بأسره لما قدمته من أدبية راقية.

بل إن ثلاثياتها الشهيرة (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير) تشكل في منظومة الأدب الجزائري مرجعية هامة بالنسبة لتاريخ الجزائري وبهذه الثلاثية تكون (أحلام) قد انتهت من الحديث عن الجزائري لتفرغ لأمور أخرى كالحبّ، ونستطيع إنها تمثل بحق القطب السنوي المعرب في الأدب الجزائري المعاصر.

1. وهي (كاتبة وشاعرة جزائرية اشتهرت من خلال الإذاعة الجزائرية حيث كانت يومياً لعدة سنوات برنامجها الشعري بعنوان همسات...[1]، الذي كان على أمواج الأثير، خلال سنوات السبعينات والثمانينات، "وكان هذا البرنامج يشد إليه أذان الآلاف من الشباب، سواء الذين يحبون الأدب والشعر أو الذين تهزه مشاعرهم الأصوات الأنثوية.... إذا كانت أحلام بصوتها الساحق تجعل كل الشباب يختلون أجهزة الراديو ليلاً في زوايا بيوتهم للسماع والمتعة[2]"، "كانت تتحفنا بإشعار نسمعها : ثم نقرؤها في دواوين المطبوعة... وبعد ذلك هنا نحن في السنوات الأخيرة نتعرف عليها روائية كبيرة[3]".

ولدت الكاتبة والروائية سنة 1953م، في مدينة (قسنطينة)، حيث زاولت دراستها الابتدائية والثانوية بها، لتتخرج من الجامعة المركزية بشهادة ليسانس في اللغة والأدب العربي منجزة خلال تخرجها مذكرة بعنوان (صورة المرأة في الأدب الجزائري) لتلتحق بعدها بجريدة (الشعب) الأسبوعية، حيث قامت بإجراء لقاءات مع كبار الآداب امتثال (أدوسنيه، محمود درويش، نزار قباني....) وغيرهم .

فساهم هذا الاحتكاك في بلورة قدرتها الأدبية الصحافية، حيث: "عرفت في الساحة الأدبية على مرفأ الأيام"[4] الذي صدرت لها سنة 1972م عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، واتبعته بديوانها أكاذيب سمكة سنة 1967 الصادر عن مؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر وهي السنة نفسها الذي صدر لها "الكتاب في لحظة عرى" عن دار الحداثة في بيروت.

بعدها سافرت إلى باريس لتتحصل على الدكتوراه في علم الاجتماع هذا العلم الذي أسست مبادئه ببحث بعنوان " Algérie Femmes et écritures".

تحت إشراف المستشرق الفرنسي (جاك بيرك) وتنال الدكتوراه في علم الاجتماع من باريس ثم قامت بتأسيس مجلة (الحوار) رفقة زوجها (جورج الراسي) الذي كان رجلا مهما في (بيروت) وله علاقات مع الكثير من الأدباء وفي سنة 1985 قامت بنشر الدكتوراه المذكورة سابقا عن دار "L'harmattan" بباريس.

"وقد استقرها المقام منذ أكثر من ربع قرن ببيروت، حيث أعادت هيكلة عقلها الإبداعي"[5]، وهناك كتبت روايتها (ذاكرة الجسد) التي نالت بفضلها جائزة (نجيب محفوظ للأدب)، ولقد صدرت هذه الرواية عن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر، ثم أعيد

طبعها بدار الحداثة (بيروت) حيث قام بتقديرها الشاعر الكبير (نزار قباني) ثم أن (أحلام مستغانمي) استطاعت بفضل ترجمتها لأعمال (مالك حداد) إلى العربية أن تكون من المؤسسين للفعل الروائي إلى جانب (محمّد ديب) و(الطاهر وطار) : هذا بشهادة كثير من النقاد، والمختصين في شأن هذا الحقبة الأدبية، الذي ضل حكراً على الأوروبيين دون سواهم.

وإذا كنّا الجيل الجديد قد حرمنا من التعرف من قريب على هذه المبدعة الكبيرة مثلما تعرفنا على أدباء بارزين في ذلك يبقى شيئا مأسوفا عليه غير أن للكاتبة قناعتها ودوافعها التي جعلتها تختار الإقامة خارج الوطن بعيداً عن قرائها كما اختارت بحرية البلد الذي تقطنه ، حيث ذاع صيتها وحفلت بها الأحداث وهي بيروت بلد الحضارة. وقد أطلقت على نفسها (عزلاء الورقة) كما وصفت :"بالأغنية الساحرة"، و(قصيدة) كون بدايتها كانت شعر ومن ذلك قصائدها التي تضمنها كتابها (أكاذيب سمكة) نذكر على سبيل المثال: (الأحلام الحافية).[6]

لم تبهرني يوماً عربات النخيل الذهبية.

ولم أكن أؤمن بالحنيات الطيبات.

انتهى زمن الخرافات يوم لبست حذائي الأخير.

كما تلبس الصينيات حذائهن الأول.

قالباً ضيقاً تتقلص فيه الأقدام...والأحلام

أيضا لها قصيدة: (أحمل الأشعار قيلت): [7]

أكره الكلمات الجاهزة للقول.

والثياب الجاهزة للبس

والأعياد الجاهزة للفرح.

والأماني الجاهزة للإرسال.

والحزن الجاهز للبكاء.

ولها قصائد أخرى ك: "نقد"، "البكاء في حضرة البحر"، و"رسالة إلى صديق بايرون"[8].

ولكن في اعتقادها أن الشعر يحدها على أن تكتب بشغف كبير جداً، لذا لجأت إلى الكتابة الروائية باعتبارها تساعدها على أن تكتب بحرارة وحرية فوجدت فيها ضالتها، وهي تقول عن مدينتها "ثمة مدن تسكنها وأخرى تسكننا، وأحيانا نقيم في أمكنة لا علاقة لنا بها إطلاقا، إنما فضاء للكتاب، وهي الواقع الكاتب لا يقيم سوى في كتبه"[9].

والأدباء في كتاباتهم مثلهم كالأنبياء، وهبهم الله حكمته ولغته ليتموا بها من المستوى التي تحفظوا الذاكرة البشرة من الضياع "فالأديب الحديث هو الرسول في عصر ما بعد الرسالات لان مهمته تقتضي ذلك.." [10]، لان أدبهم موجه للجماهير وليس لفرد معين فهم مطالبون بالنهوض بمجتمعاتهم والاهتمام بظروف والتعبير عن دقائق شؤونها بحكمة وحذر وأحداث تأثير المطلوب، وبذا تكون الروائية (أحلام مستغانمي) قد منحتنا روايات اعتبرها الكثير ملمحة نثرية، ونحن ألان نوحد الفروق بين من قرأ (لأحلام) فلا يملك سوى أن يرفع لها مقامة في قلبه وفي ذاكرته وبين من لم يقرها في بعض الكتاب أنفسهم ويظلون يجهلون قيمتها، لذلك يقرّ الباحثون على أن هذه الأديبة المدهشة اختارت أن تكون بعيدة في مسكنها عن الجزائر قريتاً بإنتاجها وقلبها منها، فهي لا تسعى للتشهير باسمها بقدر ما تسعى لتشهير بأبطال بلدها، هذا ما حدث في ثلاثيتها التي تبدأ من حوادث 8 مايو 1945م، إلى أيام

الرئيس الراحل (محمّد بوضياف)، وبهذا تكون قد غطت جل الأحداث في اعتقادها أن حب الوطن ليس كلمات تتردد على الشفاه، وتنما هو عمل مهم وأداء للواجب والتضحية في الساعات العسيرة، ومن يحب وطنه يبذل جهده فيما يرفع قدره... لذا وجب أن يصلح علماءنا وكتابنا وان تكون بذرة العبرة على الكون مزروعة فينا، "فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله...والتعلم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته.."[(11)]، كما أشار إليه بحق الإمام (ابن باديس)، هكذا اختار علماءنا وكتابنا أن يكونوا، وصارت على نمطهم أديبتنا وكتبت ذاكرة تحكي حياة الجزائر، وتبجل بطولته فهي بحسب رأيها أجمل وأروع قصة حب تربطها بوطنها وبطلها.

مضمون رواية فوضى الحواس:

هي أحداث جعلت للحواس فوضى، تتراوح بين كلمات كانت بدءا قصته قصيرة تشمل حب اثنين يحاول كل طرف منهما أن يبني أو يربي حبا وسطى ألغام الحواس، فكان هو الرجل صاحب الكلمات والقرارات القاطعة التي تتراوح بين طبعا، حتماً، دوماً، قطعاً، إما هي كانت تحب الصيغ الصبيانية والجمل الواعدة ولو كذب وتلك التي لا تنتهي بنقطة وإنما بعدة نقاط انقطاع، هذه الثنائية في الحياة كانت نهايتها يوماً بعد عام ومنذ شهرين تحت كلماته (هو) صاحب المعطف، قصة حب كتبتها بعد عامين من الصمت والقطيعة، كانت بدايتها يوم شدها دفتر أسود عادي فاشترته، إذا كانت الكلمات القاطعة فصولاً لروايتها. أماّ الشخصيات فكانت تطويها أقدار اللغة من أب شهيد، زوج عسري، أخ ضال، وسائق مات ضحيةٌ، فالمكان كان معلم وموقع لتسريب التاريخ بين فترتي: الثورة والعشرية السوداء، إما هي المرأة فكانت شال الدانتيل تلهو به ريح اللغة تارة بجنون الكتابة، وتارة أخرى بتقديس الرجل، هو رغم الزمان والمكان، قدوماً بحبها للعشق والجنون الذي يصاحب الكتابة، أصبحت جزءاً لقصة أبطالها من حبر، يبدأ تواطؤها مع الأحداث يأخذ مجراه من لقاء سلمنا، (أولبيك) الذي حمل معه الكبير من المفاجئات، أهمها لقاها به هو (صاحب الكلمات القاطعة والعطر المميز، لتتناول الأحداث بلقاء آخر كان في الموعد) ثم في مقهى (السلام)، بهذا التعاقب توطدت العلاقة بينها، إلا أن هناك ما عكر مجرى الأحداث. موت (عمي أحمد) السائق في عنزة الأوضاع السياسية غير مستقرة، فكان من الواضح طبعا أن يكون للأقدار دوراً في لعبة الحب القائمة بينها وبين البطل، حيث أنها تنتقل إلى العاصمة مع شقيقة زوجها (فريدة) لتأخذها صدفة مرة أخرى للقاء أخر به هو الذي كان موجودا هناك ودون سابق إنذار يلتقيان عند بائع الجرائد لتمسك لها أول خيط يدلها عليه، كان هذا الخيط رقم هاتفه الذي ثبت أول موعد عشق بيهما، وإقامتها في العاصمة وبالتحديد في (سيدي فرج) يغريها هذا الأخير كاسم مرفأ مهم، توقفها ذاكرة التاريخ مرة أمام تاريخ الجزائر الزاخر بشخص "الأمير عبد القادر"، وتاريخية (سيدي فرج)، طبعاً بعد بلوغ قد النضج نتيجة لقاءهما تأخذ الأقدار مجرى آخر، يغادر هو لتعود هي إلى قسنطينة بحلول عيد الأضحى الذي لم يكن يشبه الأعياد في نظرا إذ تلتقي بأخيها ناصر عند زيارتها للمقبرة،ليفترق بعد جدال واتفقا على أن يلتقيا في البيت العائلي بقدوم الوالدة من الحج، فكان اللقاء لقاء وداع محتم لسفر ناصر إلى ألمانيا، فبالرغم ما آلت اله الظروف يبقى (هو) الشيء الوحيد الذي يكبر داخلها كل يوم ويغطي كل خيبتها، كان (هو) من قراء (هنري ميشو) خيط آخر يدل عليه، وحسب ظنها (هي) أعتقد انه رسام وذلك بقراءتها للهوامش الموجودة في الكتاب، لكن لا لوحة ولا كتاب رسم يدلان على ذلك في بيته وتستمر في بحثها لتكتشف انه صحفي وله جنيبات عاطفية، وبهذه الاكتشافات والاعتقادات تعود بها للتاريخ فتستوقفها استقالة (شاذلي بن حديد) وحل البرلمان ودخول البلاد في متاهة دستورية.

قطعاً تأخذ الأحداث إلى يوم حظ على أرض الوطن رجلاً اسمه (مُحَّد بوضياف) الرجل المسن فبعد ثمانية وعشرون عاماً من الانتظار يعود ليستحضر ذكرى رجالات وبطولات لكنه كان ينحوا نحوى مأواه، ومن بين الصور التذكارية لهذا الرجل الذي تجمعه مع أعضاء التجمع الوطني على صفحة من صفحات الجريدة، كان (هو) من بينهم الذي سرعان ما أن رأت صورته راجعته هاتفياً، وإذ به داخل الوطن ولرايته ذهبت إلى العاصمة لتلتقي به في موعد أخر بالمكان نفسه الذي التقيا فيه من قبل، ولكن هذه المرة كان لقاءاً مختلفا عن كل اللقاءات الأخرى، قام على سؤال وجواب تكتشف من هو، ويعترف أخيرا انه (خالدين طوبال) بطلها في رواية (ذاكرة الجسد) بعاهته الجسدية ولغته، إذا كان هو البحر الذي يخفي وراءه حقيقة أخرى هي أن هذا البطل هو مجرد قارئ لها وليس من بحثت عنه مستدلة بعطره وعلاماته القاطعة ورقم هاتفه فكان العطر ساحة العشق ل(عبد الحق) الغائب الحاضر، وتتوالى الأحداث بقرار أمها المفاجأ بالعودة إلى قسنطينة ليكون بينها لقاء أخير بعيد عن البيت في مطعم بحري، فيكشف البحر عن شخصيته وسبب عاهته وبعد شهرين وفي 29 من حزيران كانت فاجعة فقان رجل عرفته الجزائر 166 يوماً من الحكم (مُحَّد بوضياف)، تلتها فاجعة أخرى موت (عبد الحق) الذي كان صحفيا اغتاله أيدي المجرمين، فعاشت (حياة) بين رجلين وفوضى حواس متبادلة من سوء الفهم، رجل حبري منتحل شخصية (خالد بن طوبال) ورجل حقيقي لم يعي يوماً وجودها في عالمه الحميم، فكانت المقبرة الواجهة الأخيرة لرؤية (عبد الحق) من دون أن يدرك وجودها، لتصنع دفترها على قبره تاركة وراءها مشهداً لن يتكرر أبداً، غير مبالية بمصير ذلك الدفتر، وما يمكن أن يحققه من مكاسب أدبية، فما كانت تتخلص من عبوديتها للكتابة سبقوها لناصر واهتمامها بزوجها وولادتها حتى عاودتها أعراض الكتابة فكانت بدا هي أول خطوة بين فصلين ليتحد حبها من جديد.

الأسباب الدافعة لتأليف الرواية:

إن كل عمل يتوفر عليه الإنسان لابد لن يكون وراءه دافع يدفع إليه، وطريق مرسومة يسير فيها، لكي يحقق هدفه ويبلغ غايته، وجميع سلوكياتنا نحن البشر تحركنا قوات كاملة فيها يسميها علماء النفس بالدوافع، ويمكن أن نصل إلى الدوافع من خلال طرح سؤال عن كل سلوك من سلوكياتنا باعتبار ((البيئة الاجتماعية هي التربة التي ينشأ فيها الأديب وعلى قدر غنى وخصوبة هذه التربة تتغلغل جذوره في الأعماق وتمتد فروعه في الأفاق، فتأتي ثمار أعماله طيبة، بالغة مقنعة))[12].

لذلك فأية ظاهرة أدبية لم تنبع من فراغ فهناك "ظروف اقتصادية وثقافية وتاريخية تعقدت في ما بينها"، ليفرز لنا عملاً أدبياً راقياً وتخلق لنا جيلاً كاملا يحمل مشعل الكتابة[13]، لذا فمن شك أن يكون العمل أدبي مفصولاً عن ذات الأديب وبيئته، لان الأديب ابن بيئته يؤثر ويتأثر، وأحلام مستغانمي وبشهادة الكثير من الأدباء والنقاد تعتبر مبدعة (لأن الأديب ابن بيئته يؤثر ويتأثر)، لان أدبها ينطلق من أجواءها وشقوصها وبيئتها وروحها وجغرافياتها، فبهذا ينتمي الأديب العربي.

وانطلاقاً من أن لكل حادث حديث فان ما تقوله عن المجتمع الجزائري أنه عرف تحولاً بارزاً على مستوى تجدر الإحساس بالذات "والأوضاع الداخلية المتأزمة والتناقضات الصارخة"[14]، التي عانى منها الأديب الجزائري، فبعد أن هاجرت (أحلام) إلى باريس وفي ظل الظروف المتغيرة التي فرضتها طبيعة البلاد، وبعد أن عاشت عشرة سنين، واحترقت بنار الغيرة، فتبلور الوعي لديها، بشكل أكثر حده وعمقاً، فسكنتها حالة جديدة، كلما تقدم نجاحها أو فشلها احتاجه لوطن يضمها وتراب يحميها، وبالتالي اقرب لضرورة الرجوع إلى ينابيع الأولى ولفترة النور الطبيعي الموجود في الوطن وان لازمها الخوف من الموت خارج الوطن دون أن تعطيه حقه من الشهرة، لذا فقصتها مع قسنطينة قصة حبّ طريقة في العزبة ساعدتها أن تكتب بذلك الشغف، قسنطينة بالنسبة لها مثل بيروت

بالنسبة (لنزار قباني). فهو لم يسكن بيروت لكنها كانت تسكنه، ولو سكنها وما كتب عنها يمثل ذلك الجمال، فالاغتراب والشعور بالوحدة يذكر بالوطن فيحتاج المرء إلى

مدينة تأويه وبالذات يحتاج إلى ذاكرة، فيختصر وطنه في مدينة، فالفكرة التي تنضج في العقل تثور بالقلب، قد تدفع اليد مثلاً إلى إمساك القلب لخلق عمل أدبي.

إلى جانب هذا الدافع هناك دافع آخر فجر قريحة الكاتبة وجعلها تكتب رواياتها والوزن الذي احتله والدها في قلبها من خلال رسائل من جهة ووزنه الأدب من جهة أخرى وكان شاعراً بالفرنسية كما كان مهووس بذاكرة قسنطينة وتاريخ رجالها، فقسنطينه هنا ما هي إلا ذريعة اتخذت لحب الجزائر واعتبرت نفسها البنت التي لم تنجبها.

إضافة إلى هاذين الدافعين هناك دافع آخر، هو تأثرها الكبير بالكاتب العراقي (مالك حداد) لا سيم روايته (رصيد الأزهار لا يجيب) و(سأهبك غزالة) وكلا الشخصيتين عانت الهجرة والاغتراب مع اختلاف الظروف، من ما ولد عندها الشعور بالبعد والمعاناة الداخلية وبعد وفات (مالك حداد) رأت (أحلام) نه لم يعطي حقه الكامل وان تكريمه ليس أن تعطيه وسام شرف بل أن نأخذ مما أعطى، لأن كل مبدع يموت لا يمكن إنجابه من جديد، لذا أخذت بعض فقرات من روايته ووضعتها في روايتها تكريماً له ولروحه الطاهرة وبخاصة من موقفه الفريد من اللغة العربية ودفاعه عنها وعن العروبة لذا حان الوقت أن تكف عن ثقافة أبناءها البررة انه مهما تبلغ شهرة الكاتب وعظمته لا يجد غير بلده لتعطيه وتعينه حقه كاملاً من التقدير والاهتمام، وبهذا تكون(أحلام) بصفتها مدينة ل (مالك حداد) ابن قسنطينة، بالكثير لاعتزازها به وبشخصيته الفذة،و بهذا أكدت انه لم يبقى كاتب أو أي شخص عادي بهذه الصفة ولم يفي حقه فما قاله (مالك حداد): "الفرنسية منفاي..."[15]، كلام جميل يسعد به كل من سمعه سواء أحبه أو كرهه، أن اللغة العربية هي الحياة.

كما نجد دافعا آخر وهو محاولة (أحلام) تخليفه الأجيال من الصرامة في التاريخ لان ما يروي يسهل فهمه، أكثر من البعيد بعناوين، لذا (فوضى الحواس) كتبت بحكم من الذاكرة الوطنية، ولحفظ التاريخ من الضياع وتخليصه من الصرامة التي دفعتنا للملل، لان مع الوقت يتلاشى التاريخ ويتناساه الجيل اللاحق، بينما تبقى الأعمال الروائية محفوظة في الذاكرة.

كما نجد عاملا به تنبهت له (أحلام) وهو أن بلادنا تعاني من الحب بين الرجل والمرأة وتحمل هذا الرجل صعوبة الاعتراف بالحب فهي بهذا العامل تريد مصارحته "...فكانت دائماً تعتقد أن على المرأة أن تكون قادرة على التخلي على أي شيء لتحتفظ بالرجل الذي تحبه"[16].

ويشترك الباحثون على أن (أحلام مستغانمي) إضافة إلى أخلاقها الإنسانية التي امتزجت مع رقي كتاباتها لترفعها إلى المستوى العالي، فهي ذات موهبة وخبرة إضافة برصيدها بناء صرح الرواية في الجزائر، وبهذا استطاعت أن تتحدى الكثير من الأدباء والنقاد فنظراً لنظرتها العميقة للأمور، ومحبتها الشديدة لكسب قراءها الجزائري الذي وسفته بالمشاكل فهي بالرغم من كل ما حققته إلا أنها تبقى خائفة من أن تخيب ظنه بخاصة بعد حضورها معرضاً للكتاب المنعقد بتاريخ 28/18 سبتمبر 2003 وملاحظتها لإقبال كبير على فناء كتبها لذا قالت بان: "الشخص الوحيد الذي كان يعينني حقاً ..القارئ الجزائري"[17].

فوضى الحواس في المتطور النقدي:

يحسن قبل أن نتحدث عن استقبال النقد للرواية والخوض في عالمها ودرس دلالتها وتحليلها تحليلاً يستنطق الواقع فيها، يجدر بنا بادئ ذي بدء أن نعد موضوعها واتجاها، ونحن من حين لأخر ترتفع في عقولنا وقلوبنا أصوات خافتة، ذات الوقع البعيد، تترك أثارا

وراءها لأنها تقضي إلى نقاش منهجي موضوعي، يكسب طابع إنتاج محترم يبسط التاريخ في موضوع شيق لمرحلة من حل مسيرة النضال الوطني في البلاد ولعل (فوضى الحواس) قد حضت بنصيب من هذا الامتداد، باعتبارها ليست للترفيه وإنما رسالة الكاتبة وما هو ملاحظ أن هذه الروايات تضمنت شخصية سياسي جزائري غير معروف الاسم وتعلقه بوطنه وحبيبته وتحديد اتجاهه أمر يصعب الوصول إليه، لان الاتجاهات في الكثير من الروايات تتدخل فيما بينها، ويصعب علينا إيجاد الحد الفاصل بينها، وبالتالي يصعب علينا الحكم على انتهاء الرواية، إلى اتجاه دون آخر كما أن مضمونها وان كان يبدوا بسيطا ومبشراً في الظاهر إلا انه وجد أن النظر ليه من عدة زوايا لان هذه الرواية "لا تعطى الأشياء بل رموزها"[18]، فموضوعها ومحتواها غير مضمونها.

ومشكل (الاتجاه) طرح منذ نشأة الرواية، لكن بات يطرح بعدة في الدراسات المعاصرة للروايات، لان ثمة تطورات فكرية وأدبية برزت في العالم المعاصر ترفض المحدودية في الاتجاهات الأدبية، وبالنسبة لنا فان موضوع الدراسة هو فوضى الحواس) لذا ستحاول وضعها في إطارها المناسب الذي يتماشى ومضمونها ومحاولة الحكم عليها انطلاقا من جانبين اثنين: الوقف الفني والموقف الفكري.

أما من الجانب الفكري فالرواية هذه تصنف ضمني الرواية الواقعية لصلتها الوثيقة بالواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي في الفترة الممتدة من أحداث 25 أكتوبر 1980، وسنة 1993م، وبهذا يصير مضمونها تعبيرا عن أزمة فكرية، أكثر منها اجتماعية وبالنسبة للموقف الفني، فروايتين تنتمي إلى النوع الذي يهتم بالجانب اللغوي والفكري دون تغليب جانب على آخر، وتجدر الإشارة هنا إلى الواعية ليست الواقعية بحذافيرها، وتفاصيلها، وإنما الواقعية الفنية التي لها صلة مباشرة بتطور الأحداث في الرواية، كما أن الرواية لا تخلو من ملامح وجدانية رومانسية تظهر في تلك الإحساسات المرهفة، والألم الممتن والعشق الجنوني الذي بحياة البطل.

أما فيما يحقن الإطار العام للرواية، فيمكن إدراجها ضمن رواية (تيار الوعي، لان الكاتبة اتحدت مع بطل الرواية، فهي تتكلم بضمير (أنا) الذي يجعلها داخل الأحداث فنحن نتعرف ونطلع على الأحداث والمواقف من خلال الشخصية الرئيسة، و(فوضى الحواس) لا تنموا باتجاه النهاية ، بل هي استرجاع للأحداث الماضية، هذا ما جعلها تتخذ شكلاً دائري تنطلق فيه الأحداث من المواقف من النهايات، ولقد تشعبت بالرؤية الذاتية فالرواية بهذا عبارة عن حركة وهي أكثر منها أحداث بعينها، متخذة شكل السيرة الذاتية ومعتمدة على وسيلة التذكير، في سرد الأحداث التي وقعت فعلاً، والكاتبة بهذا الشكل الفني تحاول اكتشاف ذاتها والبحث عنها في زمن استعصى التواصل مع الواقع ، وعليها اكتشاف ذاتها أولا، والواقع الحاضر ثانيا والرواية بعودتها للماضي تصنف حسب تصنيف (ميخائيل باختين) ضمن "الرواية المورفولوجية"[19] التي تتميز بالصوت الواحد أو الرئيسة الأحادية.

وبعد تحديدنا لموضوع الرواية واتجاها تظهر أراء النقاد الكتاب في روايات (أحلام مستغانمي) فتجد مثلاً الابنة البارة (فضيلة الفاروق) وأحدق منهم: "تعتذر طويلاً وما أضناها الاعتذار عندما ضنت سوء بالأدباء الجزائريين، واعتقد أنها روعة الرواية الوطنية تتوقف عند اسم واحد هو (أحلام مستغانمي)، قبل أن تدرك أن للجزائر قافلة طويلة من الأقلام المبدعة التي تجاهلتها وأخطأت بحقها"[20].

فرغم قسوة (فضيلة) صدقها إلا أنها خبأت الكثير وهربت إلى أصلها وظهرت بوادر خوفها الأولى لتتعلق بحبل (غادة السمان) التي أشارت إليها في عمودها الأسبوعي بإحدى المجلات "هذه الكاتبة لها مستقبل واعد ....". وهي التي أبدعت عندما قالت إن: "للجزائر رجالاً قساوة كحجر وان الإعلان الجزائري مسيء للأديب وللكاتب وللثقافة بشكل عام"[21].

"...ولان أحلام نجحت في أن تكتسح سوق الكتاب بثلاثيتها (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر السرير) أنها إثارة كثيرا من الغيرة والحسد لدى الرجال والنساء.. ولان ثقافتنا العربية علمتنا شيئا مبهما هو كيف تدمر الموهبة وتقضي على الإبداع فقد كتب

الصحفي من تونس كلاماً منسوباً لشاعر كبير هو (سعدي يوسف) مفاده أن (ذاكرة الجسد) هي من إبداعه أصلا ولم يتردد آخرون في القول أن (نزار القباني) وهو على فراش المرض أهدى العمل لأحلام وتحججوا بكلمة التي زينت ظهر غلاف الرواية..."[22].

كلام كثير دار حول أحلام حتى أن بعض كتاب الجزائر حلوا عليها ووصفوا كتاباتها "بالساندويتش" و"الكليشهات" الجاهزة... واتهموا الإعلام العربي بنفخ هذه البالونات وجعلها في مصاف (الطيب صالح)، (أمين معلوف) و(عب الرحمان مونيف) وغيرهم بل وحتى هناك من يردي سحب البساط من (غادة السمان) لتحل محلها (أحلام) وان هذه ضريبة النجاح على (أحلام) وان تدفنها ، لكن م هي قاسية هذه الضريبة في ديار العرب، أنها ضريبة قد تنهي حياة الأديب، كما أن هناك كتاب آخرون قرؤوا ل(أحلام)، فأعجبوا بكتاباتها أمثال (يوسف شاهين) الذي يقول عنها: "أحلام مستغانمي امرأة رائعة استطاعت أن تفرض نفسها كأحد الأصوات الروائية العربية الهامة التي تربعت على عرش الكتابة في أواخر القرن"، و(ياسين رقاعية) يقول: "أن أحلام مستغانمي هي كنز من الموهبة وخلال مدة وجيزة وضعت إقدامها بقوة في الصنف الأول بين الروائيين العرب"[23] ، ويقول (مروان نجار) أيضا: (كم سهرت أحلام مستغانمي من الأم الجزائر وأمالها، ومن ذاتها المتوهجة ومن ثقافاتها المتنوعة قبل أن تولد رواية اختزلت وأحداثها وشخصياتها عصراً عربياً وإنسانيا بكامله رمزه الجزائر وحدوده الإنسان في الملحق)[24]، كما يقول أيضا (لينيه برحي): "حيث تقرأ أحلام مستغانمي لا تستطيع إلا أن تستخدم إلا هاتين الطريقتين الأزميل أو الخطبة، وهي أحلام مستغانمي وكسر تابوت الرجال" مقال للدكتور (بنيه قاسم) يقول فيه: "تتعرض المبدعة أحلام مستغانمي لهجمة محمومة تبغي التشكيكْ في مقدرتها الإبداعية فمنذ صدور روايتها (ذاكرة الجسد) وعلامات الاستفهام تلاحقها مشككة في كتاباتها، فأحيانا يتهمونها بسرقتها من الكاتب المرحوم (مالك حداد) والبعض الأخر ينسب الرواية للشاعر العراقي (سعدي يوسف) الذي يبدي فرح بهذه الضجة..."[25]، والهدف هو أبعاد (أحلام مستغانمي) عن كتابة الرواية ورفض نجاح الآخرين بعدم هضم تفوق الأخريات.

"فالنجاح اعتداء على الآخرين لأنه يكشف فشله"[26]، هكذا ردت أحلام مستغانمي على أسئلة مقدم برنامج (خليك بالبيت) للشاعر (زاهر وهبي) إلا أن الكاتبة سعيت (التابو) على اللفة نهائيا من الرجل، وعرته وكشفت ضعفه أمام إمكانيات اللغة التي لا حدود لها، فقد فجرت مفردات اللغة وكسرت تركيبات جملها، وكتبت لغة تكاد لا تجد له الوصف الملائم"[27].

هذا التميز والتفوق (لأحلام مستغانمي) هو الذي جعل الكثير من المبدعين يستنكرون اقتحامها اختصاصهم فراحوا يشككون انتساب رواياتها إليها وكان جواب (أحلام مستغانمي) إصدارها لروايتها "فوضى الحواس" و"عابر السرير" هاتان الروايتان التي أسكتتا الألسنة وكشفت العورات رغم أن الجرح الذي خلقته تلك الاتهامات لو يندمل بعد ولعل نجاح الكاتب لا يعدده سوى القارئ الايجابي، هذا القارئ الذي يظهر الكاتب أمامه في حجم صغير، ثم يحاول أن يعطيه المكانة التي يستحقها أن وجدت لذا فقيم الأديب

تظهر في إنتاجه، وقيمة الإنتاج تظهر في شيوعه وانتشاره كما تظهر قيمته الأدبية فيما يقوله النقاد والأدباء عنه، وعن أعماله فمثلاً: "أحلام مستغانمي" يقول عنها (احمد بن بلة) "شمس الجزائر أضاءت الأدب العربي لقد رفعت بإنتاجها الادب الجزائري إلى مقامة تليق بتاريخ نضاله، تفاخر بقلمها العربي، افتخارنا كجزائريين بعروبتنا.."[28]، وفيما قالته لجنة التحكيم لجائزة (نجيب محفوظ) "أن الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي نور يلمع وسط هذا الظلام الكثير"، وفيما قاله (يوسف شاهين) عن روايتها أنها: "أعجبتني كثيراً ...ففيها زعم عن الواقع والأحداث التي تصور جزءا من شخصية مجاهد في الصورة الجزائرية.. وهو ما سبقته الرواية العربية الهامة".

المصادر والمراجع.

1-أحلام مستغانمي: أكاذيب سمكة. موقع للنشر 1993.
2- عزّ الدين ميهوبي. شيء من ذاكرة الجسد. جريدة الخبر. ع 1609. 18 أوت 2005. ص 27.
3- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر .وحدة الرغاية . الجزائر .ص17.
4- عزّ الدين ميهوبي. شيء من ذاكرة الجسد. جريدة الخبر. ع 1609. 18 أوت 2005. ص 27.
5- أحلام مستغانمي: أكاذيب سمكة. موقع للنشر 1993.ص21
6- أحلام مستغانمي: أكاذيب سمكة. موقع للنشر 1993.ص 21.
7- أحلام مستغانمي: أكاذيب سمكة. موقع للنشر 1993.ص 27.
8- المرجع نفسه . ص 27
9- أحلام مستغانمي: الرواية هي مفتاح الأوطان المغلقة في وجهنا. سنة الجزائر في فرنسا . العدد5 .ص11.
10- عمار بن زايد. النقد الأدبي الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر ص11.
11- عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من حديث النذير. ط.01. 1983. على الغلاف.
12- عمار بن زايد. النقد الأدبي الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر .ص54.
13- واسيني الأعرج. الطاهر وطّار تجربة الواقعية. الرواية نموذجا. الجزائر 1989 .ص.09.
14- المرجع نفسه .ص101.
15- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر. وحدة الرغاية. الجزائر 1993. الإهداء.
16- أحلام مستغانمي ،فوضى الحواس ،منشوراتANEP،الطبعة2007 ،الجزائر، ص 13.
17- ذاكرة الجسد ص 15.
18-مجلة الثقافة المحلية تصدرها وزارة الاتصال والثقافة. ع.114. الجزائر.ص 210.
19- ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي. ص 17.
20- عفاف فتوح. أعتذر الرواية الجزائرية وحدها ليست مستغانمي. جريدة الشروق العدد: 1066. 5 مايو 2004. ص15.
21- المرجع نفسه ص15.
22- عزّ الدين ميهوبي. شيء من ذاكرة الجسد. جريدة الخبر. العدد 1609. 18 أوت 2005. ص 27.
23- أحلام مستغانمي. فوضى الحواس. الجزائر 2004. الغلاف الخارجي.
24- المرجع نفسه.
25- الدكتور نبيه القاسم. أحلام مستغانمي وكسر تابو الرجل. مجلة إتحاد الكتاب العرب .ص 1.
26- المقال السابق 1.
27- المرجع نفسه ص 1.
28- الدكتور:نبيه القاسم .أحلام مستغانمي وكسر تابو الرجل . ص 1.